عتبات النص الروائي

دراسة في رواية (ذاكرة الجسد)

م. احمد حسين جارالله

كلية الإدارة والاقتصاد / جامعة بغداد

لم تعد النقد الحديث يكتفي بدراسة النص الادبي ،بل تجاوزه إلى كل ما يتعلق بالوسائل الفنية والتقنية التي تسهم بشكل او باخر في تشكيل النصوص وتصميمها قبل وصولها الى المتلقي (القارئ)، فمع التطور التكنلوجي الذي شهده عصرنا الحديث يمكن الإفادة من الكثير من التقنيات في تصميم وتشكيل المؤثرات البصرية التي تسهم في التشكيل الدلالي للنصوص الأدبية بوصفها (مطبوعات بصرية) من هنا نجد المنهج السيميائي يقوم على دراسة كل ماهو حامل للمعنى وتحليله بوصفه (علامة) أو (دليلاً) ليس على اللغة بوصفها (نظاما مغلقاً) فحسب بل على مستوى الاستخدام الملموس لكل المحسوسات غير اللغوية ، فالسيميائية الحديثة بوصفها منهجاً نقدياً حرصت على عدم جعل ((الدليل اللغوي موضوعاً حصرياً لها وجعلها نموذجاً ارقى لبقية الانساق غير اللغوية)) (١) ، وإنما يمكن استثمار التشكيلات البصرية وغيرها من المدركات الحسية في انتاج المعنى وتشكيله بوصفها (علامات) أو (دوال) خاضعة لقصدية المؤلف من حيث الاختيار والتوزيع إذ تتحدد دلالتها تبعا لجدلية العلاقة التي تربطها مع بقية الانساق الدلالية .

إن هذا التوجه النقدي فسح المجال واسعاً لاكتشاف جماليات النص الادبي خارج الحدود اللغوية وسمح بـ((التحررمن الحجرة اللسانية الضيقة التي اشاعتها البنائية وما بعدها وفسح المجال للذات المتلقية لممارسة فعلها النقدي بحرية ومرونة كبيرتين)) .(٢)

من هنا كان اهتمام السيميائين بـ(المتلقي) اهتماماً كبيراً إذ ((إن ميشيل ريفاتير طور سيميائية خاصة بالقراءة جاعلاً منها قراءتين إحداهما استكشافية والأخرى استرجاعية ففي الاستكشافية يقوم القارئ بالتعارف على المعاني الأولية لشفرة النص ، وفي الاسترجاعية لا يكتفي بالتعرف على المعاني الأولية ،وإنما يقوم بتفسير الشفرة وتأويلها لافتاً النظر الى المعاني الثانوية التي يتوصل اليها عن طريق التأويلات)) (٣) .

فالسيميائية الحديثة بوصفها منهجاً نقدياً حديثاً – كما يقول (ايكو) في مفارقته الطريفة : ((هي العلم الذي يدرس كل ما يمكن استخدامه من أجل الكذب على أساس اعتمادها على فكرة (العلامة) المكونة من الدليل البديل لأي شيء آخر ، فانها بذلك مهيئة لان تختبر درجات الصدق الفني في الاعمال الأدبية وتقيس مستوى كفاءتها الدلالية وطرائفها في الترميز والتشفير)) (٤) .

ومن هذا المنطق يمكن القول أن المقاربة السيميائية هي فحص الخطابات الأدبية والتمثيلات البصرية والتنظيمات الفضائية وتحليل كل ماهو حامل لمعنى ضمن ثقافة معينة مهما يكن ذلك الحامل الحسي للادراك . (٥) واكتشاف (العلامات) بوصفها نظاماً من التواصل ، فنحن وكما يقول (جوزيف كورتيس) : ((لا يمكننا (التفكير) فعلياً دون علامات ودون كلمات ودون ترسيمات بل دون صور .. إن التفكير ولو(ذهنياً) هو لعب على مجموعة من العلامات))(٦)

وعليه تقتضي عملية التحليل النقدي دراسة (العتبات النصية) بوصفها تضم الكثير من العلامات الدالة التي ترتبط بالنص السردي ارتباطاً جوهرياً .

***

لم تحظ العتبات النصية بوصفها مكوناً من مكونات البنية الدلالية باهتمام المناهج النقدية ، ولم يتم التعامل معها الا بوصفها (مكملات تشكيلية) لا تقدم شيئاً الى تحليل النص الروائي لذلك تجاوزها النقد الى النص الروائي ، فمع الكم الهائل من الدراسات النقدية التي تناولت النص الروائي وفصلت القول في عناصره البنائية والدلالية لا نجد إلا دراسات محدودة واشارات بسيطة هنا وهناك تشير الى دلالة العنوان أو نظام تشكيله أو تصميم الغلاف وغيره من العلامات التي تحيط بالنص الروائي ، وتسهم في تشكله الدلالي ، على الرغم من أنها ((أهم المكونات البنائية السردية التي يقوم عليها النص القصصي ، تتفاعل ضمن المحيط المركزي والموجهات الأخرى المكونة للنص في الاطار التشكيلي الخارجي ، هدفها التعريف بالنص واستنطاق جمالياته وآليات اشتغاله وتفسيره وتحليله نقدياً أي إنها – بتعبير آخر – الجسر الموصل إلى جسد النص القصصي (المتن النصي). (٧)

ولكن ما إن جاء المنهج السميائي الذي أولى في مشروعه النقدي الاهتمام بتفاصيل وتضاريس الابداع الفني ابتداءً بالجانب الشكلي الذي صيغت به النصوص الأدبية من عناوين خارجية وداخلية ومقدمات وتوجيهات وهوامش وانتهاءً بالنص الادبي تركيباً وبناءً وصياغة واسلوباً ولغة حتى صارت (العتبات النصية) محوراً مهما من محاور الدرس النقدي الحديث كما تؤكد ذلك المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة في نظريات القراءة وسيميائيات النص وجماليات التلقي التي منحت (العتبات النصية) أهمية خاصة بوصفها مكونات ودوال رئيسة ترافق النصوص ولا يمكن الاستغناء أو التغاضي عنها ، فهي أولى المحطات التي يتوقف عنها (المتلقي / القارئ) ليقرر بعدها الولوج إلى عالم النص الادبي للتعرف على افاقه واكتشافه أو الانسحاب والتراجع عن ذلك . ومن دون شك إن اتخاذ مثل هذا القرار يعتمد بشكل كبير على ما تقدمه (العتبات) من اغراءات ، وما يمكن ان تثيره في المتلقي من رغبة الاكتشاف والفضول المعرفي .

يأتي هذا البحث ليسلط الضوء على (عتبات النص الروائي) بما يشكله من انطباع أولي عن طبيعة (النص الروائي) وما يمكن أن يرسمه من أفق توقع لدى (القارئ / المتلقي) الذي يختلف بطبيعة الحال من حيث الاتساع أو الضيق تبعاً لتشكيل هذه العتبات وتبعا لثقافة (القارئ / المتلقي) .

وقع الاختيار على رواية (ذاكرة الجسد) للكاتبة الجزائرية (أحلام مستغانمي) موضوعاً للبحث لاعتبارات كثيرة يأتي في مقدمتها المكانة المتميزة التي تحتلها هذه الرواية في الساحة الأدبية المعاصرة ، فقد ((صدرت رواية (ذاكرة الجسد) سنة ١٩٩٣ م في بيروت ، وبلغت طبعاتها حتى فبراير٢٠٠٤ تسع عشرة طبعة بيع منها حتى الآن (١٣٠٠٠٠ : نسخة) عدا النسخ المقرصنة في عدة دول عربية مثل الأردن – فلسطين – سوريا – لبنان – مصر اعتبرها النقاد أهم عمل روائي صدرفي العالم العربي خلال العشر سنوات الأخيرة ، وبسبب نجاحاتها أثيرت حولها الزوبع مما جعلها الرواية الأشهر والأكثرإثارة للجدل . ظلت لعدة سنوات الرواية الأكثر مبيعاً حسب احصائيات معارض الكتاب العربية مثل (معرض بيروت – عمان – سوريا - تونس – الشارقة) ،حصلت على جائزة نجيب محفوظ للرواية سنة ١٩٩٧ ، وهي جائزة تمنحها الجامعة الامريكية بالقاهرة لأهم عمل روائي باللغة العربية . وجائزة (نور) عن مؤسسة نور للابداع النسائي القاهرة سنة ١٩٩٦ ، وجائزة (جورج طربية للثقافة والابداع) سنة ١٩٩٩ لأهم انتاج ابداعي . وكذلك صدرت عن الرواية ما لا يحصى من الدراسات والاطروحات

الجامعية عبر العالم العربي في جامعات الأردن وسوريا وتونس والمغرب والبحرين ومرسيليا ، واعتمدت للتدريس في عدة جامعات في العالم العربي واوربا

منها جامعة(ليون)و (ايكس ان بروفنس)و (مون بوليه) والجامعة الامريكية في بيروت وجامعة اليسوعية والجامعة العربية في بيروت . كما اعتمدت في البرنامج الدراسي لعدة ثانويات ومعاهد لبنانية . وكانت نصوصها ضمن مواد امتحانات البكالوريا في لبنان لسنة ٢٠٠٣. اشترت شركة أفلام مصر العالمية سنة ١٩٩٨ حقوق الرواية لانتاجها سينمائياً .. لكن بطلب من المؤلف ألغي العقد سنة ٢٠٠١ . ابدى الممثل العربي القدير (نور الشريف) اكثر من مرة أمنيته في نقل هذا العمل الى السينما في فلم ضخم ووعد بايصاله الى مهرجان (كان) العالمي كما تداولت الصحافة العربية لعدة سنوات أسماء ممثلات رشحّن لأداء الدور النسائي في هذا الفيلم . ترجمت الرواية الى لغات عدة عالمية منها الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والكردية . (٨)

والأمر الآخر لاختيارها الثراء الدلالي لعتباتها النصية التي ظلت محافظة على هيئتها البصرية المكونة للغلاف الخارجي ونوع الخط الذي كتب به العنوان فضلاً عن عتبة الاهداء وما من قيمة دلالية ، وطبيعة العلاقة الجدلية بين هذه العتبات والبنية الدلالية للنص الروائي ، وذلك ما جعلني وشدني الى قراءة النص مرات عدة للوقوف على طبيعة العلاقة بين النص الروائي وعتباته المختلفة .

على وفق هذا التوجه سنحاول رصد العلامات والدوال التي تعد بمثابة مداخل تسبق المتن النصي التي لاتكون لها دلالة مكتملة الا بها مثل غلاف الرواية والعناوين الرئيسة والفرعية والاهداء وكل ما يتعلق بالمظاهر الخارجية للكتاب كالصور المصاحبة للغلاف وكلمة الناشر على ظهر الغلاف ، فكلها عناصر توجه قراءة النص وتسهم ذبدور كبير في إثراء وتأويل المتلقي لها وسنقف عند أربعة منها :

اولاً : العنوان

ثانياً : الغلاف الامامي .

ثالثاً : الأهداء .

رابعاً : الغلاف الخلفي .

***

اولاً : العنوان

يمثل العنوان الرئيسة التي يمكن من خلالها الولوج الى العالم القصصي والتعرف على تفصيلاته تبعاً لما يحمله العنوان من محددات وموجهات دلالية يتحكم بها الكاتب عبر الصياغة اللغوية والبلاغية التي يختارها في صياغة العنوان ، فأول ما يلتفت إليه القارئ هو العنوان المثبت على غلاف الخارجي للكتاب ضمن التشكيلة البصرية التي تسهم في إبراز العنوان من خلال بعض الوسائل التفنية والفنية مثل التحكم في نوع الخط وحجمه ولونه واختيار الخلفية المناسبة التي يظهر عليعا الغنوان وغيرها من الوسائل التي توظفها دور النشر بوصفها عوامل جذب بصرية تسهم في شد انتباه المتلقي . في رواية (ذاكرة الجسد) نجد الكاتبة تستثمر الطاقة الدلالية التي تكمن في استعمال المجاز عبر قانون الاستعارة في تشكيل العنوان تشكيلاً استعارياً من خلال اسناد (الذاكرة) بوصفها من سمات العقل البشري الحي أذ يمارس الانسان فعل التذكر والاستذكار الى جانب إلى جانب الكثير من الفعاليات العقلية الأخرى التي انماز بها الانسان من غيره من الجماد والحيوان إلى (الجسد) بدلالته

المطلقة التي اكتسبت من اقترانها بـ(ال) التعريف التي تفيد الاطلاق فنحن أمام جسد غير محدد الهوية . ان هذه الصيغة المركبة تركيباً اضافياً (ذاكرة الجسد) لا تخلو من مفارقة ، إذ تدفع المتلقي للسؤال : هل للجسد ذاكرة ؟ ! وجسد من الذي تقصده الرواية ؟ وهما سؤالان تبقي الكاتبة الإجابة عنهما للنص الروائي مما يحفز القارئ على قراءة الرواية وفك رمزية العنوان .

إن تركيبة العنوان الثنائية وعلى الرغم من الاقتصاد اللغوي الواضح في صياغتها إلا انها تدفع العنوان الى فضاء مفتوح مشحون بالدلالات والخيارات المتاحة امام المتلقي لاستكشاف تعددية المعنى وتنوع الدلالات وهذا ما يطبع العنوان بطابع شعري .

يمكن للقارئ المتفحص لعنوان الرواية أن يستشف بعض القضايا قبل الشروع بقراءة الرواية ، ويمكن أن يكون تصوراً مبدئياً عن بعض عناصر السرد الروائي مثل عنصر الزمن ووجهة النظر والشخصية القصصية ونمط بنائها السردي ، إذ تحيل مفردة (ذاكرة) في العنون إلى إن زمن القصة هو (الزمن الماضي) وان الزمن الحاضر هو

زمن الشخصية الخالية من الاحداث وما يروى داخل القصة من احداث وصراع ووقائع متمركزة في ذهن الشخصية هذا من جهة ومن جهة أخرى تشير لفظة (ذاكرة) الى حضور (الراوي) شخصية مشاركة في الحدث القصصي ومن ثم يقابها حضور(المروي له) سواء كان شخصية مشاركة أو شخصية افتراضية ، وبما أن السرد هو (سرد استرجاعي) فمن البديهي أن يتلون السرد بوجهات نظر متنوعة (موضوعية ، وايديولوجية وتقويمية ونفسية وغيرها)تتغير مع تغير مسار السرد ولاسيما وانه يعتمد (الذاكرة) مصدراً للسرد .

ومن يقرأ الرواية سيكتشف صدق هذه التصورات ، فمن صفحتها الأولى سيتعرف الى (ذاكرة) الراوي عبر أسلوب سردي تتحول غيه (ذاكرة الفرد) الى (ذاكرة شعب) ويتحول فيه (الجسد) إلى (وطن) فما يرويه الراوي من ذكريات واحداث ووقائع عن تاريخه الشخصي سواء على المستوى الواقعي او الرمزي او الشعري أنما هو يروي عن تاريخ الجزائر ،وعلى هذا الأساس يتشكل السرد وتترابط حلقاته حيث يتماهى الذاتي بالموضوعي والخاص بالعام والفردي بالجماعي وتغدو ذكريات الراوي صورة مصغرة لما حل بوطنه وشعبه ، فاحداث الرواية تدور حول ذكريات الراوي الذي تحمل ظلم الاحتلال الفرنسي ، وكافح وناضل وضحى من اجل حلم التحرير والاستقلال هو ورفاقه المخلصين لكنهم لم يقطفوا ثمار تلك التضحيات فقد سبقهم إلى ذلك الانتهازيون وتسلطوا على رقاب الشعب وصادروا أحلامهم .

وعلى هذه القراءة يكون (جسد الراوي المعاق) الذي بُترت ذراعه اليمنى في نضاله ضد الاحتلال رمزاً (للوطن / الشعب) العاجز عن المطالبة بحقه بعد الاستقلال ((كان جسدي ينتصب ذاكرة أمامه ، ولكنه لم يقرأني يحدث للوطن ان يكون امياً)) .(٩)

ويمكن القول إن جسد الشخصية التي تشارك البطل الاحداث الروائية(أحلام) كما سماها والدها عندما ولدت أيام النضال ضد الاحتلال الفرنسي أو (حياة) كما يصر على تسميتها الراوي رمزاً للوطن ، وخسارة الراوي لها وضياعها منه رغم حبه لها وتعلقه الشديد بها خسارة لحلم الاستقلال .ويبدو ذلك واضحا في الصدى الرمزي الذي يصف به ثوب الزفاف : ((كم من الايدي طرزته ، وكم من النساء تناوبن عليه ليتمتع اليوم برفعه رجل واحد .. رجل يلقيه على كرسي كيفما كان وكأنه ليس ذاكرتنا كأنه ليس الوطن .

فهل قدر الأوطان أن تعدها أجيال بأكملها لينعم بها رجل واحد)) .(١٠)

وسواء أكان المقصود من (الجسد) في عنوان الرواية (جسد البطل / الثوار) أو (جسد البطلة / الثورة) فإن الدلالة تنتهي الى دلالة كبرى ((الوطن)) وبذلك يكون عنوان الرواية (ذاكرة وطن)

***

ثانياً :غلاف الرواية

العتبة الثانية التي يقف عندها القارئ هي الفضاء البصري الذي يشكل الصفحة الأولى للغلاف بما تضمه من الوان وايقونات وصور تتواشج مع العنوان لتتحول الى عناصر تشويق واثارة وتمارس نوعاً من الواقع الجمالي والتاثير النفسي والمعرفي على المتلقي في محاولة مننها لمد الجسور والتواصل بين المتلقي والكاتب .

صدرت رواية (ذاكرة الجسد) بطبعتها الاولى سنة (١٩٩٣) واعيدت طباعتها خمس وعشرين مرة حتى عام ٢٠١١ ولكنها على الرغم من ذلك بقيت محافظة على تصميم غلافها مع رصد بعض التغييرات الطفيفة كما يتبين ذلك واضحا في صور الغلاف . (١١)

تقوم الصفحة الأولى لغلاف الرواية على ثنائية الصورة والحروف إذ قسمت الصفحة على نصفين النصف الأعلى عنوان الرواية بحروف كبيرة نسبياً وبخط مميز ظل محافظاً على لونه (برتقالي ، أخضر ، ذهبي) مع المحافضة على تحديد باللون الأبيض مما يمنح كلمات العنوان وضوحاً شديداً ولاسيما على الخلفية الزرقاء .

ونجد تحت الحرف الأخير من العنوان أي وسط الصفحة من الجهة اليسرى كلمة (رواية) الدالة على انتماء هذا العمل الادبي الى جنس الرواية ثم اتبتت الكاتبة اسمها (أحلام مستغانمي) وسط الصفحة وفي النصف الأسفل من الصفحة نجد صورة عبارة عن تخطيط لـ(وجه امرأة) ليختفي بعد ذلك في الطبعات التالية ويعوض مكانها بلوحة تشكيلية تأخذ تفصيلاتها من (عالم الرسم) إطار لوحة مربعة وأخرى مستطيلة وقطعة قماش ، وغيرها تبدو من بعيد على هيئاة امرأة جالسة ، يمكن القول أن هذه اللوحة أو تخطيط وجه المرأة ما هما إلا علامتان تشيران إلى عالم الرسم بوصفه

العالم الذي ينتمي اليه بطل الرواية ويعيش فيه أجوائه بوصفه رساماً مشهوراً .وفي اخر الصفحة نجد اسم دار النشر (دار الأداب)التي تحتكر طباعة الرواية ونشرها .

يمكن القول أن أهم إضافة طرأت على صحة الغلاف هي الخطان المائلان في الجهة اليسرى العليا من الكتاب وقد كتب بينهما رقم الطبعة وذلك ابتداءً من الطبعة الثامنة عشرة بشكل واضح جداً اكتسبت هذه الصفة الوضوح من استعمال اللون الأبيض على الخلفية الزرقاء ومن انزياح اتجاه خط الكتابة المائل عن الخطوط الافقية لبقية الكلمات المثبتة على الغلاف ، لم يتوقف الانزياح والخروج عن المألوف عند الخط المائل ، بل امتد الى خروج هذه العبارة من الصفحات الداخلية للكتاب - كما درجت عليه دور النشر – الى واجهة الكتاب (الصفحة الامامية للغلاف) في سابقة من نوعها لا يمكن تفسيرها إلا أنها شهادة تؤيد مدى نجاح الكتاب (الرواية) وسعة انتشارها ، ويعكس من جهة أخرى الطلب المتزايد عليها ورضا الجمهور (المتلقي) فضلا عن انها لا تخلو من مقاصد تجارية ودعائية يهدف من خلالها الناشر الى الترويج للكتاب وتحفيز المستهلك (القارئ) وتشجيعه على اقتناء (الكتاب / الرواية) لضمان انتشار وتداول الكتاب بين الجمهور والقراء لان مثل هذا (الإعلان) يغري القارئ بشراء الرواية وقراءتها والبحث عن سر تكرار طباعتها المتكررة ولاسيما وان العدد كبير نسبياً .

***

ثالثاً : الاهداء

يمثل الاهداء موجهاً رئيساً للنص الروائي ولاسيما اننا نجد اغلب الروايات تأتي من دون (الاهداء) ووجوده يشير بطريقة او أخرى الى قصدية الكاتب في استثمار الطاقة الدلالية لبعض التشكيلات اللغوية التي يتمكن عن طريقها من تهيئة ذهن المتلقي وحمله على التأويل وتحقيق نوع من المشاركة الوجدانية بين الكاتب والمتلقي .

يحتل (الاهداء) في رواية (ذاكرة الجسد)موقعا متميزا حيث يتوسط الفضاء الأبيض للصفحة الثانية من الرواية ، وقد كتب بنوعين من الخطوط الأول كتب به لفظة (الاهداء) في بداية السطر الأول ولفظة (أحلام) في السطر الأخير وجاء بينهما متن الاهداء بنوع اخر من الخطوط مما يمنحه استقلالية من حيث الشكل البصري توحي باستقلاله الدلالي :

الاهداء

إلى مالك حداد..

ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته..

فاغتالته الصفحة البيضاء.. ومات متأثراً بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية وأول كاتب قرر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً لها.

والى أبي ..

عساه يجد هناك من يتقن العربية فيقرا له أخيرا هذا الكتاب .. كتابه

أحلام (١٢)

تكمن شعرية هذا الاهداء في تحليل العلاقة بين (المُهدي) و (المُهدى اليه) وتجليات هذه العلاقة في المادة الروائية ، إذ ثمة تداخل وتواشج بين الشخصيات الواردة في الاهداء وشخصيات الرواية .

يضم هذا الاهداء ثلاث شخصيات (المُهدي) الكاتبة الروائية (أحلام مستغانمي) وقد مهرت المتن باسمها (أحلام) ، والمُهدى اليه (مالك حداد) و(الأب) والد الكاتبة وكلاهما مصدر الهام لكتابة الرواية ، إذ ثمة عوامل مشتركة تجمع بينهما .

نبدأ مع الشخصية الأولى التي ذكرت بالاهداء (مالك حداد : ابن قسنطينة الذي اقسم بعد استقلال الجزائر الا يكتب بلغة ليست لغته فاغتلاته الصفحة البيضاء .. ومات متأثر بصمته ليصبح شهيد اللغة العربية وأول كاتب قرر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً لها. (١٣)

يمكن للقارئ المتفحص للرواية أن يكتشف التواشج بين (مالك حداد) وبطل الرواية المحوري (سي خالد) بمعنى اخر قد يكون البطل الواقعي الشهيد (مالك حداد) هو نفسه البطل الورقي بعد ان اجرت عليه الكاتبة بعض التغييرات والتعديلات تبعا لما تقتضيه صنعة الرواية وبنائ الشخصية الرواية وأول شيء بدأت به هو تغيير اسم الشخصية فتحول (مالك) الى (خالد) وقد اضفى هذا التغيير (دلالة الخلود) التي

جاءت منسجمة مع صفة (الشهيد) من دونق قطع الصلة مع الاسم الأصلي وذلك باستعمال الصيغة الصرفية نفسها (فاعل) .

وما يؤيد هذه القراءة قول الكاتبة وهي تكشف عن طبيعة العلاقة التي تربطها بـ(مالك حداد) : ((كنت بالنسبة اليه رمزاً للجزائر الفتية التي صمت ليستمع لصوتها العربي وكان بالنسبة لي اسما كبيرا لم اقرأ له شيئا ولكن ادري أن فيه الكثير من فجيعة ابي وحرقة حرمانه من تعلم اللغة العربية)) (١٤)

وفي الحقيقة ان الكاتبة في هذه الاسطر لم تحدد طبيعة العلاقة التي تربطها بـ(مالك حداد) بقدر ما تختصر ثيمة الرواية وخطها السردي العام ، فمن يقرأ الرواية سيتعرف الى (سي خالد) ذي الخمسين عاماً الذي يعيش فيالمنفى بفرنسا ويلتقي بفتاة جامعية (أحلام) بكل ما تحمله من تراث جزائري يدعم هويتها العربية ، فيعجب بها حد العشق لكنه يبقى عاجزا امامها : ((كنت اشعر برغبة في الجلوس اليك ..في التحدث والاستماع اليك ، عساني اتعرف على النسخة الأخرى لذاكرتي ولكن كيف اقنعك بذلك ؟ (.....) أنا الرجل الذي تقابلينه لأول مرة والذي تتحدثين اليه كما نتحدث بالفرنسية للغرباء بضمير الجمع دعيني اضم كل من احببتهم فيك اتملك واستعيد ملامح (سي طاهر) في ابتسامتك ولون عينيك ، فما اجكل أن يعود الشهداء هكذا في طلتك ، ما اجمل ان تعود امي في سوار معصمك ، ويعود الوطن اليوم في قدومك)) (١٥) يمكن القول ان هذه الفكرة هي الخط السردي الرئيس للرواية .

الشخصية الثانية في الاهداء هي شخصية الأب :

((والى ابي :

عساه يجد هناك من يتقن العربية فيقرا له أخيرا هذا الكتاب .. كتابه)). (١٦)

تبدو صورة الاب في هذا الاهداء متطابقة تماماً مع شخصية الأب في الرواية (سي الطاهر) زعيم الثورةالذي استشهد قبل أن يتمكن من تسجيل اسم ابنته (أحلام) في السجلات الرسمية تاركا المهمة للراوي : ((لقد ذهبتِ ابعد من أحلامه إنك الوريثة لكل طموحاته ومبادئه ، كان رجلا يقدس العلم والمعرفة ويعشق العربية)) (١٧)

اما الشخصية الأخيرة (أحلام) فعلى الرغم من أن الراوي لا يستعمل الا اسم (حياة) في السرد الروائي :

- هل يسعدك أن اناديك (حياة) ؟

قلت متعجبة :
-لماذا ..؟ (ألا يعجبك اسمي الحقيقي ... أليس اجمل) (١٨)
((لاحظي اني لم اذكر اسمك في هذا الكتاب)) (١٩)
الا انه يصرح باسمها الحقيقي بشكل غير مباشر : ((كانت تلك اول مرة سمعت فيها اسمك .. سمعته وانا بين لحظة نزيف بين الموت والحياة فتعلقت في غيبوبتي بحروف كما يتعلق محموم في لحظة هذيان بكلمة ..
كما يتعلق رسول بوصية يخاف ان تضيع منه
كما يتعلق غريق بحبال الحلم
بين الف الآلم وميم المتعة كان اسمك
تشطره حاء الحرقة .. ولام التحذير .. فكيف لم احذر اسمك الذي ولد وسط الحرائق الأولى .)) (٢٠)

ويزداد التماهي بين الكاتبة الحقيقية والشخصية الروائية عندما يكشف القارئ أن بطلة الرواية (كاتبة روائية) ولا سيما عندما تتكلم عن تجربتها الروائية واسلوبها في كتابة الروايات ورسم الشخصيات وصناعة الحدث : ((إن المهم في كل ما نكتبه .. هو ما نكتبه لا غير فوحدها الكتابة هي الادب وهي التي ستبقى ، واما الذين كتبنا عنهم فهم حادث سير .. أناس توقفنا امامهم ذات يوم لسبب أو لاخر .. ثم واصلنا المسير)) (٢١)

على وفق هذه القراءة فان عتبة الاهداء لم تأت منفصلة عن المتن الأصلي للرواية بل جاءت عبارته متشظية في غير مكان من متن النص الروائي وبذلك يكون الاهدائ قد قام بعملية استباقية لتقديم الشخصيات المحورية في الرواية وحقق دهشة الشعرية وايحاءاتها وفتح فضاءات رحبة امام القارئ .

من جهة أخرى يمكن قراءة الدوال الواردة في الاهداء والتي تسهم بشكل فاعل في تكوين المنظومة الدلالية للرواية بالشكل الاتي :

- ابن قسنطينة = الانتماء
- اللغة العربية = الهوية القومية
- الشهادة = التضحية
- الالتحاق بالاب = مواصل طريق النضال
- الصفحة البيضاء = كل المعاني السامية .

وأخيرا لا يبقى سوى الـ (أحلام) وهي الحافز الأول للتغيير ومواصلة الطريق .

***

رابعاً : الغلاف الخلفي للكتاب

إن الصفحة الخلفية للكتاب لاتقل أهمية عن بقية العتبات بوصفها جزءاً مهما من واجهة الكتاب الإعلامية ولا سيما مع كتب الروايات والمجموعات القصصية فعادة ما تضم الصفحة الأخيرة لهذا النوع من الكتب بعض الآراء النقدية المتعلقة بالمتن السردي لكبار النقاد ، او فقرات نصية ذات خصوصية معينة يتم انتخابها لتوضع على غلاف الكتاب أو قد نجد بعض الكتاب من يضع صورته الشخصية على ظهر الكتاب ويدرج تحتاها اسماء مؤلفاته واثاره الأدبية فتتحول الصفحة الخلفية للغلاف الى وسيلة دعائية تعرف بالاديب وتعرض سيرته الأدبية .

تكتسب الصفحة الخلفية لغلاف كتاب (ذاكرة الجسد) أهميتها من العبارات التي سطرها الشاعر الكبير (نزار قباني) عليها والتي تمثل شهادة إبداعية تحث المتلقي وتشجعه على قراءة الرواية ، ولا سيما وأن هذه (الشهادة الإبداعية) لم تصدر عن قارئ عادي وانما صدر عن اديب لامع له مكانته المرموقة في الساحة الأدبية ومتلق ذي ذائقة أدبية تشهد له بذلك دواوينه الشعرية :

((قرأت رواية (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي، وأنا جالس أمام بركة السباحة في فندق سامرلاند في بيروت.بعد أن فرغتُ من قراءة الرواية، خرجتْ لي أحلام من تحت الماء الأزرق كسمكة دولفين جميلة، وشربت معي فنجان قهوة وجسدها يقطُر ماءً.. روايتها دوّختني. وأنا نادراً ما أدوخ أمام رواية من الروايات وسبب الدَوْخَة أن النص الذي قرأته يشبهني إلى درجة التطابق، فهو مجنون، ومتوتر، واقتحامي، ومتوحش، وإنساني ، وشهواني.. وخارج على القانون مثلي. ولو أن أحداً طلب مني أن أوقع اسمي تحت هذه الرواية الإستثنائية المغتسلة بأمطار الشعر.. لما ترددت لحظة واحدة.. هل كانت أحلام مستغانمي في روايتها (تَكتُبُني) دون أن تدري.. لقد كانت مثلي تهجم على الورقة البيضاء، بجماليةٍ لا حدّ لها.. وشراسةٍ لا حدّ لها.. جنونٍ لا حدّ له . الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور.. بحر الحب، وبحر الجنس، وبحر الإيديولوجية، وبحر الثورة الجزائرية بمناضليها ومرتزقيها، وأبطالها وقاتليها، وملائكتها وشياطينها، وأنبيائها وسارقيها..

هذه الرواية لا تختصر ذاكرة الجسد فحسب، ولكنها تختصر تاريخ الوجع الجزائري، والحزن الجزائري،والجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي..وعندما قلت لصديق العمر سهيل إدريس رأيي في رواية أحلام، قال لي: لا ترفع صوتك عالياً.. لأن أحلام إذا سمعت كلامك الجميل عنها،فسوف تُجنّ...أجبته: دعها تُجنّ.. لأن الأعمال الإبداعية الكبرى لا يكتبها إلا مجانين!!

نزار قباني لندن ١٩٩٥/٨/٢٠)) (٢٢)

إن مضمون هذه الشهادة الأدبية التي دونت على الصفحة الخلفية للرواية تدخل في نطاق الجذب والاغراء والاثارة ، واذا جاز لنا استعمال لغة رجال الاقتصاد وعلم التسويق فانها بمثابة (علامة الجودة)التي تضمن للمستهلك صلاحية المنتج وتؤكد رضا (الزبون / القارئ) فضلا عن تأثيرها في الجانب النفسي إذ تزيد من قناعة (الزبون / القارئ) وتدعم قرار الشراء والاقتناء ، وهذا ما يفسر زيادة عددالطبعات حتى وصلت الى الطبعة الخامسة والعشرين خلال سبع عشرة سنة .

وما يزيد من القيمة الدلالية لهذه الشهادة لجؤ الكاتبة أو دار النشر الى توظيف التقنيات البصرية إذ يرى القارئ هذه العبارات مكتوبة بـ(خط اليد) وباللون الأسود على لوحة الغلاف الملونة بالوان فاتحة ضمن تدرج لوني يجمع بين الأبيض والاصفر والازرق الفاتح مما يخلق على الصعيد البصري ايقاعاً يدعم الإحساس باستقلال هذه العبارات عن المتن الروائي ويعلن عدم انتمائها الى متن النص الروائي المطبوع، فهي شيء طارئ على الكتاب تمت اضافته في وقت لاحق بعد اكتمال الطباعة والنشر ، وربما قد يتوهم القارئ ان النسخة التي بين يديه هي نفسها النسخة التي قرأها الشاعر (نزار قباني) ودون على غلافها رأيه بخط يده وبقلمه واسلوبه الشعري في اختيار الكلمات توزيعها بين السطور والنقاط والفواصل وعلامات الترقيم الأخرى توزيعاً لا يبتعد كثيرا عن أسلوبه في كتابة الشعر ، فضلا عن التفصيلات الأخرى مثل تحديد الزمان والمكان وتذيل الصفحة بالاسم الصريح للشاعر وكل هذا يسهم في اقتناص المتلقي واغوئه لشراء الرواية وقراءتها .

بقيت مسألة أخيرة قد لا ينتبه اليها البعض وهي أن من يدقق النظر في التدرجات اللونية التي اصطبغت بها لوحة الغلاف يكتشف أن اسم الكاتبة (أحلام مستغانمي) مكتوب بخط كبير وسط اللوحة بلون يتماهى مع التدرج اللوني ويمكن أن يقرأ بوصفه (علامة) تأخذ دلالتها بالتفاعل مع بقية العلامات المقدمة في نسق واحد لتعبر عن

رغبة الكاتبة بالاعتزاز بكتابها والتأكيد على منزلته الأدبية والذي يعكس نوعاً من أنواع الاعجاب بالنفس بمعنى اخر انتصار للذات .

***

وأخيرا يمكن القول أن النقد السيميائي سمح لـ(التبات النصية) بالدخول الى الدرس النقدي الحديث وفتح أمامه افاق نقدية جديدة لم تتوقف عند حدود الدلالة اللغوية بل تعدت ذلك الى دراسة المنطق الصوري للتشكيلات الملحقة بالرواية مثل تصميم الغلاف وصياغة الاهداء وغيرها من الانساق غير اللغوية التي يمكن أن تختزل المادة الثقافية والفكرية وتمثل حلقة وصل بين المؤلف والكتاب من جهة والكتاب والمتلقي من جهة أخرى .

ومن هذا المنطلق استطاعت الكاتبة(أحلام مستغاني) توظيف العتبات النصية في الرواية فلم تتوقف الصياغة الدلالية للعنوان عند حدود الدلالة الفكرية واختزال موضوع الرواية بل تعدت ذلك الى الإشارة الى نمط البناء السردي وهيمنة الزمن الماضي والسرد الاسترجاعي وتنوع وجهات النظر . اما الاهداء فقد كشف الكثير من الجوانب الفكرية عن الشخصيات الروائية وطبيعة العلاقة فيما بينها . وتحمل الغلاف مهمة الترويج والاعلان عن قيمة (الكتاب / الرواية) فضلا عن التعبير عن اعتزاز الكاتبة بمنزلتها الأدبية واعتزازها بنفسها .

وبذلكحققت العتبات النصية في رواية (ذاكرة الجسد) حضوراً متميزاً بما تمتلكه من علامات استوعبت القيمة الفنية للرواية ، وبما تمتلكه من قدرة على التأثير في المتلقي .

***

الهوامش :

١- آليات انتاج النص الروائي - عبد اللطيف محفوظ : ٣٢
٢- لعبة المتاهة في التأويل – د. بشرى موسى صالح : ٩
٣- النقد الادبي الحديثمن المحاكاة الى التفكيكية – إبراهيم محمود : ١٠٦
٤- شفرات النص – دز صلاح فضل : ٦
٥- ينظر سيميائية اللغة – حوزف كورتيس : ٩
٦- نفسه :٢٢
٧- مرايا السرد وجماليات الخطاب القصصي – محمد صابر عبيد :١٨٣
٨- لمزيد من المعلومات راجع الموقع الالكتروني https://ar.wikipedia.org/wiki
٩- الرواية : ٤٠٤
١٠- الرواية : ٣٦٢
١١- تنظر الصورة في الملحق
١٢- تنظر صفحة الاهداء في الملحق
١٣- تنظر صفحة الاهداء في الملحق
١٤- لمزيد من المعلومات راجع الموقع الالكتروني : من هو مالك حداد:
https://www.britannica.com/biography/Malek-Haddad
١٥- الرواية : ٦٦
١٦- تنظر صفحة الاهداء في الملحق
١٧- الرواية : ١٠٥
١٨- الرواية : ١١٠
١٩- الرواية : ٣٨٦
٢٠- الرواية : ٣٧

٢١- الرواية : ١٢٥
٢٢- ينظر الغلاف الخلفي للرواية

***

المصادر :

أولاً : الكتب الأدبية:
١- آليات انتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي : عبد اللطيف محفوظ/ منشورات الاختلاف – الدار العربية للعلوم ناشرون / الطبعة الأولى ٢٠٠٨ بيروت .
٢- ذاكرة الجسد – أحلام مستغانمي /دار الاداب ،الطبعة الثالثة والعشرون ٢٠٠٨ ، بيروت .
٣- سيميائية اللغة – جوزيف كورتيس /ترجمة :د.جمال حضري ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٠ ، بيروت .
٤- شفرات النص _دراسة سيميولوجية في شفرات القص والقصيدة – صلاح فضل / دارالأداب ، الطبعة الأولى ١٩٩٩، بيروت .
٥- لعبة المتاهة في التأويل ومقالات أخرى – د. بشرى موسى صالح / ازمنة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩ ، عمان – الأردن .
٦- مرايا السرد وجماليات الخطاب القصصي – د. محمد صابر عبيد و د. سوسن البياتي / دار الالعين للنشر ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ، القاهرة .
٧- النقد الادبي الحديث من المحاكات الى التفكيك – دز إبراهيم محمود خليل / دار المسيرة للطباعة والنشر ،الطبعة الأولى عمان الأردن .

ثانياً المواقع الكترونية :
١- رواية ذاكرة الجسد https://ar.wikipedia.org/wiki

٢- من هو مالك حداد:
https://www.britannica.com/biography/Malek-Haddad

الملحقات :

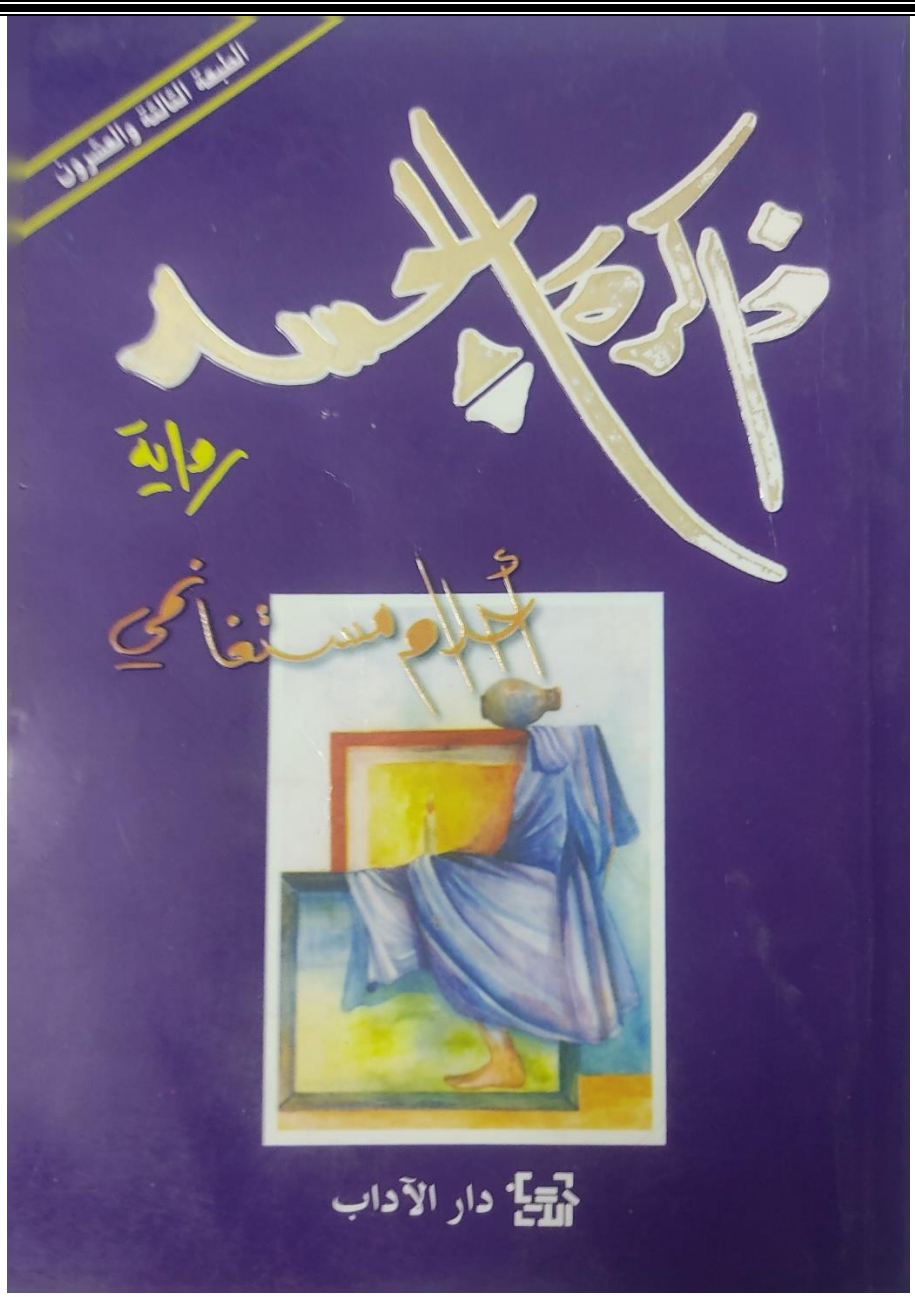

غلاف الرواية الامامي

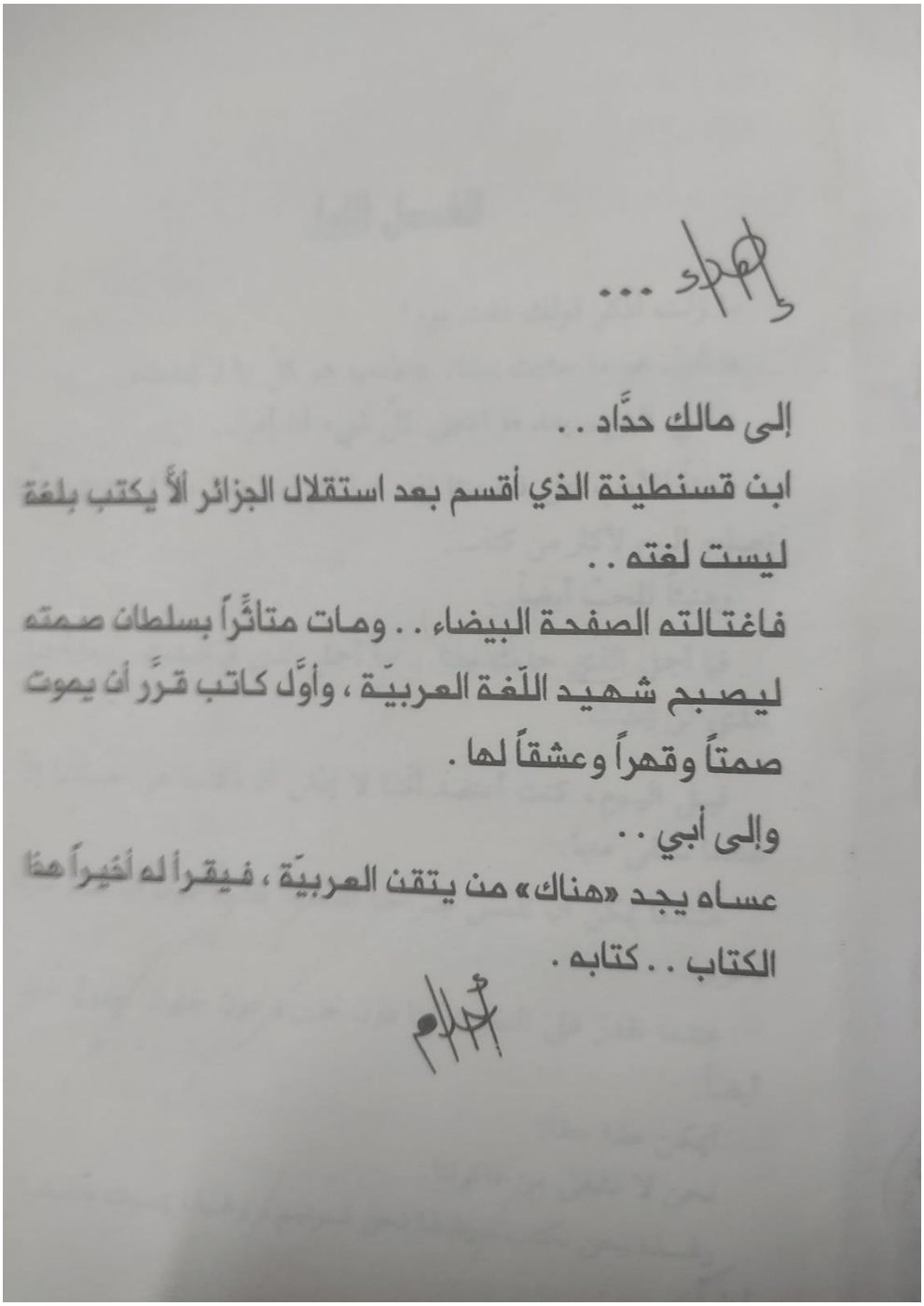

الإهداء ...

إلى مالك حدَّاد . .

ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألاَّ يكتب بلغة ليست لغته . .

فاغتالته الصفحة البيضاء . . ومات متأثِّراً بسلطان صمته ليصبح شهيد اللّغة العربيّة ، وأوَّل كاتب قرَّر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً لها .

وإلى أبي . .

عساه يجد «هناك» من يتقن العربيّة ، فيقرأ له أخيراً هذا الكتاب . . كتابه .

أحلام

الاهداء

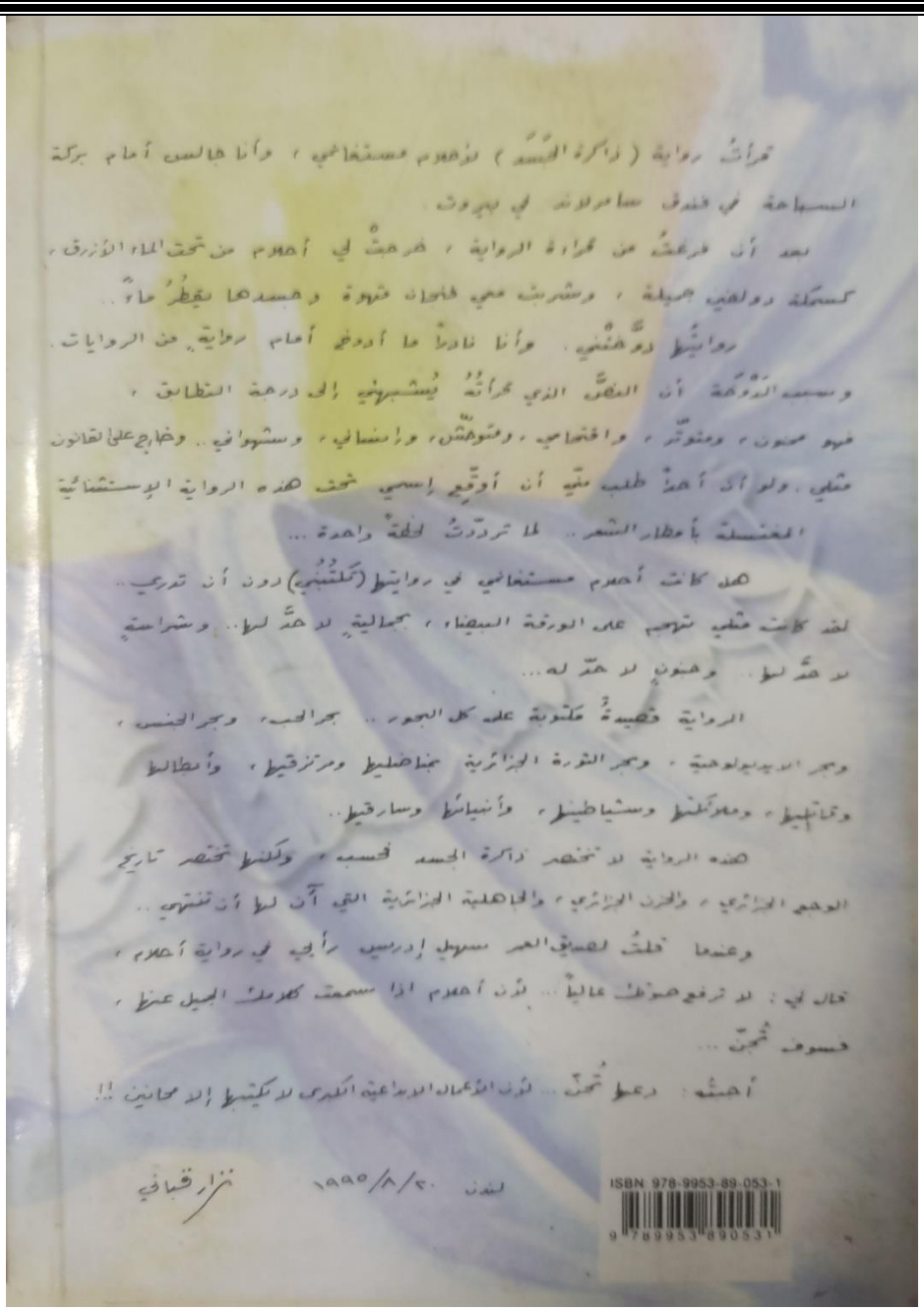

قرأتُ رواية (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي ، وأنا جالس أمام بركة السباحة في فندق هامرلاند في بيروت .

بعد أن فرغتُ من قراءة الرواية ، خرجتُ لي أحلام من تحت الماء الأزرق ، كسمكة دولفين جميلة ، وشربتُ معي فنجان قهوة وجسدها يقطرُ ماءً ..

روايتُها دوّختني . وأنا نادراً ما أدوخ أمام رواية من الروايات .

وسبب الدوخة أن النصّ الذي قرأتُهُ يُشعرني إلى درجة التطابق ، فيه جنون ، وتوتّر ، وانفصامي ، وتوحّش ، وإنساني ، وشهواني .. وخارج على القانون مثلي . ولو أن أحدَ طلب مني أن أوقّع إسمي تحت هذه الرواية الإستثنائية المغتسلة بأمطار الشعر .. لما ترددتُ لحظةً واحدة ...

هل كانت أحلام مستغانمي في روايتها (كتكتبي) دون أن تدري .. لقد كانت مثلي ترسم على الورقة البيضاء ، بجمالية لا حدَّ لها .. وشراسة لا حدَّ لها .. وهنون لا حدَّ له ...

الرواية قصيدةٌ مكتوبة على كل البحور .. بحر الحب ، وبحر الجنس ، وبحر الديالوجية ، وبحر الثورة الجزائرية بخاضليط ومرتزقيط ، وأبطالها وتماثيلها ، ومعركتها وسشياطينها ، وأنبيائها وسارقيها ..

هذه الرواية لا تختصر ذاكرة الجسد فحسب ، ولكنها تختصر تاريخ الوجع الجزائري ، والحزن الجزائري ، والفاجعة الجزائرية التي آن لها أن تنتهي ..

وعندما قلتُ لصديق العمر سهيل إدريس رأيي في رواية أحلام ، قال لي : لا ترفع سقفك عالياً .. لأن أحلام إذا سمعت كلامك الجميل عنها ، فسوف تُجنّ ...

أجبته : دعها تُجنّ .. لأن الأعمال الإبداعية الكبرى لا تكتبها إلا مجانين !!

نزار قباني لندن ١٩٩٥/٨/٢٠

ISBN 978-9953-89-053-1

غلاف الرواية الخلفي